

تفسير البحر المحيط

@ 365 @ بالنعم ، وذلك لأنه أمر بالقتل ، والقتل لا يكون نعمة ، وضعف بأن من أعظم النعم التنبيه على ما به يتخلصون من عقاب الذنب العظيم ، وذلك هو التوبة . وإذا كان قد عدّ عليهم النعم الدنيوية ، فلأن يعدد عليهم النعم الدينية أولى . ولما لم يكمل وصف هذه النعمة إلا بمقدمة ما تسببت عنه ، قدم ذكر ذلك ، وهذا الخطاب هو محاورة موسى لقومه حين رجع من الميقات ووجدهم قد عبدوا العجل . واللام في قوله : لقومه ، للتبليغ ، وإقبال موسى عليه بالنداء ، ونداؤه بلفظ يا قوم ، مشعر بالتحنن عليهم ، وأنه منهم ، وهم منه ، ولذلك أضافهم إلى نفسه ، كما يقول الرجل : يا أخي ، يا صديقي ، فيكون ذلك سبباً لقبول ما يلقي إليه ، بخلاف أن لو ناداه باسمه ، أو بالوصف القبيح الصادر منه . وفي ذلك أيضاً هزلهم لقبولهم الأمر بالتوبة ، بعد تقريرهم بأنهم ظلموا أنفسهم ، وأي ظلم أعظم من اتخاذ إله غيره { إِنَّ السَّارِكَ لَطُلُمٌ عَظِيمٌ } . ونص على أنهم ظلموا أنفسهم بذلك لأنه أفحش الظلم ، لأن نفس الإنسان أحب شيء إليه ، فإذا ظلمها ، كان ذلك أفحش من أن يظلم غيره . ويا قوم : منادى مضاف إلى ياء المتكلم ، وقد حذفت واجتزأ بالكسرة عنها ، وهذه اللغة أكثر ما في القرآن . وقد جاء إثباتها كقراءة من قرأ : يا عبادي فاتقون ، بإثبات الياء ساكنة ، ويجوز فتحها ، فتقول : يا غلامي ، وفتح ما قبلها وقلب الياء ألفاً ، فتقول : يا غلاماً . وأجاز الأخفش حذف الألف والاجتزاء بالفتحة عنها ، فتقول : يا غلام ، وأجاز ضمه وهو على نية الإضافة فتقول : يا غلام ، تريد : يا غلامي . وعلى ذلك قراءة من قرأ : قل { رَبِّ ادْعُكُمْ بِالْحَقِّ } ، { قَالَ رَبِّ السَّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ } ، هكذا أطلقوا ، وفصل بعضهم بين أن يكون فعلاً أو اسماً ، إن كان فعلاً فلا يجوز بناؤه على الضم ، ومثل الفعل بمثل : يا ضاربي ، فلا يجوز في هذا يا ضارب ، وظاهر الخطاب اختصاصه بمتخذي العجل . وقيل : يجوز أن يراد به : من عبد ومن لم يعبد جعلوا ظالمين ، لكونهم لم يمنعوهم ولم يقتلوه . والباء في { بَرَاتٌ خَذَرُكُمْ الْعُجْلُ } سببية ، واحتمال الوجهين السابقين في قوله : { تُمْ اتَّخَذْتُمْ الْعُجْلَ } جاء هنا ، أي بعملكم العجل وعبادته ، أو { بَرَاتٌ خَذَرُكُمْ الْعُجْلُ * إِلَّاهَا } . قال السلمي : عجل كل واحد نفسه ، فمن أسقط مراده وخالف هواه فقد برء من ظلمه . .

{ فَتُوبُواْ إِلَّآ بَارِئُكُمْ } الفاء في فتوبوا معها التسبيب ، لأن الظلم سبب للتوبة ، ولما كان السامريّ قد عمل لهم من حليهم عجلاً ، قيل لهم : توبوا إلى بارئكم ، أي منشئكم وموجدكم من العدم ، إذ موجد الأعيان هو الموجد حقيقة . وأما عمل العجل

واتخذه فليس فيه إبراز الذواب من العدم ، إنما ذلك تأليف تركيبى لا خلق أعيان ، فنبهوا بلفظ البارى على الصانع ، أى الذى أوجدكم هو المستحق للعبادة ، لا الذى صنعه ، مصنوع مثله ، فلذلك ، وإِعلم ، كان ذكر البارى هنا . وقرأ الجمهور : بظهور حركة الإعراب فى بارئكم ، وروى عن أبى عمرو : الاختلاس ، روى ذلك عنه سيبويه ، وروى عنه : الإسكان ، وذلك إجراء للمنفصل من كلمتين مجرى المتصل من كلمة ، فإنه يجوز تسكين مثل إبل ، فأجرى المكسوران فى بارئكم مجرى إبل ، ومنع المبرد التسكين فى حركة الإعراب ، وزعم أن قراءة أبى عمرو لحن ، وما ذهب إليه ليس بشيء ، لأن أباً عمرو لم يقرأ إلا بأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) . ولغة العرب توافقه على ذلك ، فإنكار المبرد لذلك منكر ، وقال الشاعر :

% (فاليوم أشرب غير مستحقب % .

إثماً من إِ ولا واغل .

%)